مُسْتَلْزَمُ بَيانِ الإعجازِ في دَلائلِ الإعجاز

أ. د. عيسى علي العاكوب(*)

قَصْدُ البَحْث:

يَقْصِدُ هذا البَحْثُ إِلَى بَيانِ مَفْهومِ الإعجازِ عِنْدَ عَبْدِ القاهِرِ الجُرْجانيِّ، وبَيانِ تَحْدِيدِ الشّيخِ أَدَواتِ تحقيقِه في نَظْمِ القُرْآنِ عَلَى نَحْوٍ أَظْهَرَ أَقصَى دَرَجاتِ فَصاحةِ القَوْلِ، واسْتحالَ الإتْيانُ بِشَيءٍ مِثْلِهِ عَلَى أساطينِ البَيانِ والأَفْذاذِ مِنْ مَصاقِعِ البُلَغاء. ويُولِي البَحْثُ اهتمامًا خاصًّا لِما يَسْتَلْزِمُه بَيانُ الإعجازِ مِنَ الإفْصاحِ عَن دَلائلِ الإعجاز وتحديدِ ماهِيّاتها. ومِن أَجْلِ ذلك يَقِفُ البَحْثُ عِنْدَ الفِكَرِ الآتية:

- دَرَجةُ الإعجازِ اسْمٌ لِأَقْصَى الفَصاحةِ.
- إعجازُ نَظْمِ القُرْآنِ الكريم.
- ماهِيّةُ «النَّظْمِ»، وسَبيلُ تَحْقِيقِ أَفْصَحِ النُّظُومِ.
- النَّظْمُ الإلهيُّ القُرْآنيُّ والعَجْزُ البَشَريُّ عن الإتْيانِ بِمِثْلِه.
- إِدْراكُ المَزايا والخَصائِصِ في نَظْمِ القُرْآنِ الكريم.
- نَظْمٌ بَشَريٌّ لِلنَّظْمِ الإلهيِّ: آيةُ النُّورِ في تَرْجَمَةِ آرثر جون آربري إيّاها إِلَى اللّغةِ الإنكليزيّة.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، أستاذ البلاغة والنقد في جامعة حلب.

ورد إلى مجلة المجمع في ١٢/ ٢/ ٢٠٢٣م

- مُسْتَلْزَمُ بَيانِ الإعجازِ في دَلائلِ الإعجاز.
- فِكْرةُ لا نِهائيّةِ الفَصاحةِ التي أدخَلَها نَظْمُ القُرْآنِ عَلَى التّفكيرِ البَلاغيّ العربيّ.
- مَحْصُولُ الكلام.

- دَرَجةُ الإعجازِ اسْمٌ لِأَقْصَى الفَصاحةِ:

تَعْبيرُ «الإِعْجازِ» مَصْدَرُ الفِعْلِ «أَعْجَز»، واسْمُ الفاعِلِ مِنْهُ «مُعْجِزٌ». والفِعْلُ «أَعْجَزَ» مُتعدٍّ مُحتاجٌ إِلَى «فاعِلٍ» وإِلَى «مفعول به». وحِينَ نقولُ: «إِعْجازُ القُرْآنِ» فإنّما نُضِيفُ المَصْدَرَ إِلَى الفاعِلِ؛ أَي إِنّ القُرْآنَ هو الذي يُوقِعُ فِعْلَ «الإِعْجاز». فَمَن الذي يَقَعُ عَلَيهِ فِعْلُ «الإعجاز»؟- وعَمَّ أُعْجِزَ؟. يُفْهِمُ التّقليدُ الثّقافيُّ الإِسلاميُّ أَنّ الذي «يُعْجَزُ» هو كُلُّ مَن يتلقَّى القُرْآنَ، خاصًّا الأَمْرُ العَرَبَ الذينَ نَزَلَ القُرْآنُ أَوّلَ مَرّةٍ إِليهم. وتَمامُ دِلالةِ تعبيرِ «إِعجاز القُرْآن» هكذا: إعجازُ القُرْآنِ أَفْصَحَ العَرَبِ عن أَن يأْتُوا بِشَيءٍ مِثْلِه فَصاحةً. ويَعِنُّ هنا السُّؤالُ: لِماذا يَجيءُ القُرْآنُ مُعْجِزًا فَصاحةً؟- والإجابةُ هي أَنّهُ يَجِيءُ كذلك لِأنّ الحَقَّ تعالى يَشاءُ مِنَ العَرَبِ المُعْجَزين بِفَصاحةِ القُرْآنِ أَن يَحْصُلَ في قُلوبِهم اعْتِقادٌ مُفادُه أَنّ الذي أَنْزَلَ القُرْآنَ لا يمكن إِلّا أَن يكونَ «كُلِّيَّ القُدْرةِ»، وأَنّ مُحَمَّدًا عَلَيهِ الصّلاةُ والسّلامُ لا يُمْكِنُ بِحالٍ أَن يأتيَ بِالقُرْآنِ مِن عِنْدِه، وأَنّهُ إِذا حَصَلَ مِنهم ذلك الاعتقادُ رَتّبَ ذلكَ عَلَيهم أَن يُؤمِنُوا بِكُلِّ ما ينطوي عَلَيهِ مِن مَعانٍ ومَطالِبَ، وأَن يستيقنوا أَنّ مُحمّدًا رَسُولُ اللهِ المُبَلِّغُ عَنْهُ. وإِذا كانَ سَيِّدُنا رَسُولُ اللهِ، مُحَمّدٌ عَلَيهِ الصّلاةُ والسّلامُ، كما قالَ عن نَفْسِه: «أَنا أَعْرَبُ قُرَيشٍ»، أَي أَفْصَحُهُم وأَبْلَغُهم، فقد نَزَلَتِ الفَصاحةُ الإلهيّةُ عَلَى قَلْبِ نَموذَجِ الفَصاحةِ البَشَريّة. وهكذا يكونُ الكلامُ الإلهيُّ المُعْجِزُ قد نَزَلَ أَوّلًا عَلَى الأَقْدَرِ بَيانًا، عَلَيهِ الصّلاةُ والسّلامُ، ثُمّ عَلَى مَن هُوَ أَقَلُّ مِنهُ قُدْرةً بَيانيّةً.

إعجازُ القُرْآنِ إِذَن الدَّرجةُ القُصْوَى في فَصاحةِ الكلامِ العربيِّ وبَلاغَتِه وبَيانِه وبَراعَتِه. لكنَّ القُرْآنَ في جُمْلَتِه كلامُ رَبِّ العالمينَ الرّحمنِ الرَّحيمِ المالِكِ لِيَوْمِ الدِّينِ. وقد شاءَ رَبُّنا سُبْحانَهُ أَن يكونَ كلامُه بالعَرَبيّةِ حُجّةً أَوّلًا عَلَى عَرَبِ الحِجازِ الذينَ نَزَلَ بَيْنَ ظَهْرانَيْهم. حُجّةٌ مِن جِهَةِ القُوّةِ البَيانيّةِ التي خَبَروها في أَنْفُسِهم، وخَبَرَها فيهم مُعاصِرُوهم مِن قَبائلِ العَرَبِ في جُمْلةِ الجَزيرة. ولِهذه الحُجّةِ البَيانيّةِ صِفةُ البَقاءِ والدَّوامِ عَلَى امْتِدادِ الزّمانِ عِنْدَ كُلِّ مُتْقِنٍ مُجيدٍ لِلْعَربيّةِ، خَبيرٍ بِدَلائلِ الفَصاحةِ والبلاغةِ العربيّةِ، في كُلِّ عَصْرٍ ومِصْر.

وكَوْنُ القُرْآنِ مُعْجِزًا لِلْعَرَبِ مِن جِهَةِ الفَصاحةِ والبَلاغةِ والبَيانِ والبَراعة، يَعْنِي وَصْفًا لِهذا الكلامِ الإلهيِّ بِالسَّبْقِ التّامِّ، والتّفوُّقِ المُطْلَقِ، في مَيْدانِ القُوّةِ البَيانيّة. ويَعْني هذا بِالتّبعيّةِ أَنّ الحَقَّ تعالى قَصَدَ قَصْدًا إِلَى أَن يكونَ كلامُهُ في غايةِ الإبانةِ والقُدْرةِ عَلَى إحداثِ التّأثيرِ في قُلُوبِ البَشَرِ. وقد بَيّنَ رَبُّنا ذلكَ في القُرْآنِ نَفْسِه حِينَ قالَ عَنْهُ: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

ويَعْني «الإِعْجازُ» رِحْلةً في صِلَةِ القُرْآنِ بِمَن تَلَقَّوْه أَوّلَ مَرّة. ورُبّما يستطيعُ المُتأمِّلُ أَن يقولَ إِنّ دَرَجةَ إِدْراكِ السَّبْقِ البَيانيِّ والعَظَمةِ الأدائيّةِ باللّغةِ العربيّةِ في القُرْآنِ الكريمِ سَبيلٌ إِلَى دَرَجةٍ مِن الإيمانِ بِالعَظَمةِ اللّغويّةِ لِلْقُرْآنِ أَوْلًا، ومِن ثَمّ الإيمانِ بِعَظمةِ مُنْزِلِ القُرْآن. ولَعَلَّ في ذلكَ وَجْهًا مِن وُجوهِ تفسيرِ قَوْلِ رَسُولِ رَبِّنا سُبْحانَه: «أَنا أَعْرَفُكم للهِ وأَخْشاكُم لله». ولا شَكّ في أَنّ حَظَّ رَسولِنا مِن هذا، هو الحَظُّ الأعْظَمُ عَلَى الإطلاق. وتتدرّجُ الحُظُوظُ مِن المَعْرِفةِ بِاللهِ والخَشْيةِ لله تَبَعًا لِدَرَجاتِ إِدْراكِ القُوّةِ البَيانيّةِ في كتابِ الله.

فالإِعْجازُ إِثباتٌ لِلْعَجْزِ عِنْدَ مَن يَحْصُلُ عِنْدَه هذا العَجْزُ، ويَسْتَلْزِمُ هذا أَن يكونَ المُعْجَزُ قد عالَجَ ما أَعْجَزَه وخَبَرَه وحاوَلَ التّنصُّلَ مِن تَبِعاتِه، لكنّهُ

لـم يُفْلِـحْ. ولا يكـونُ البيـانُ القُرْآنـيُّ «مُعْجِـزًا»، والعَـرَبُ الـذينَ نَـزَلَ بَـيْنَ ظَهْـرانَيْهم «مُعْجَـزينَ»، حتّـى يكـونَ الأَمْـرُ كـذلك. ولِـذلك يقـولُ الشّـيخُ عَبْدُ القاهِرِ في تحديدِ دَلِيلِ الإعجاز: «لَوْلا أَنّهم حِينَ سَمِعُوا القُرْآنَ، وحِـينَ تُحُدُّوا إِلَى مُعارضَتِه، سَمِعُوا كلامًا لم يَسْمَعُوا قَطُّ مِثْلَه، وأَنّهم رازُوا أَنْفُسَهم فأَحَسُّوا بِالعَجْزِ عن أَن يأتُوا بِما يُوازيهِ أَو يُدانيهِ أَو يَقَعُ قَريبًا مِنْهُ، لَكانَ مُحالًا أَن يَدَعُوا مُعارَضتَهُ وقد تُحُدُّوا إليهِ، وقُرِّعُوا فيه، وطُولِبُـوا بـه، وأَن يَتعرّضُـوا لِشَبا الأَسِنّةِ، ويقتحِمُوا مَوارِدَ المَوْتِ»[1].

وقد قَدَّمْنا القَوْلَ في عُنوانِ هذا الذي نَحْنُ في صَدَدِه إِنّ «دَرَجةَ الإعجازِ اسْمٌ لِأَقْصَى الفَصاحةِ والبلاغة»، ويَسْتَلْزِمُ هذا التذكيرَ بِمادّةِ هذه الدَّرَجـةِ وكُنْهِهـا فـي كِتابِ الله سُبْحانَه. وقد استقصَى الشّيخُ ذلك في الدّلائلِ فقـالَ: «أَعْجَـزَتْهم مَزايـا ظهَرَتْ لَهُمْ في نَظْمِهِ، وخَصائصُ صادَفُوها في سِياقِ لَفْظِـه، وبَـدائعُ راعَـتْهم مِـن مَبادئ آيِهِ ومَقَاطِعِها، ومَجاري أَلْفاظِها ومَواقِعِها، وفي مَضْرِبِ كُلِّ مَثَـلٍ، ومَسـاقِ كُلِّ خَبَرٍ، وصُورةِ كلِّ عِظَةٍ وتَنْبيه، وإِعْلامٍ وتذكير، وترغيـبٍ وتَرهِيـب، ومَـعَ كُـلِّ حُجّةٍ وبُرْهان، وصِفةٍ وتِبْيان. وبَهَرَهم أَنّهم تأمَّلُوهُ سُورةً سُورةً، وعُشْرًا عُشْرًا، وآيةً آيةً، فَلَمْ يَجِدُوا في الجميع كلمةً يَنْبُو بِها مَكانُهـا، ولَفْظـةً يُنكَـرُ شـأْنُها، أَو يُـرَى أَنّ غَيْرَها أَصْلَحُ هناكَ أَو أَشْبَهُ، أَو أَحْـرَى وأَخْلَـقُ، بـل وَجَـدُوا اتّسـاقًا بَهَـرَ العقـولَ، وأَعْجَزَ الجُمهورَ، ونِظامًا والْتِئامًا، وإِتْقانًا وإحكامًا، لم يَدَعْ في نَفْسِ بَلِيـغٍ مِـنهم، ولو حَكَّ بِيافُوخِه السّماءَ، مَوضِـعَ طَمَـعٍ، حتّـى خَرِسَـتِ الأَلْسُـنُ عـن أَن تَـدّعيَ وتقولَ، وخَذِيتِ القُرومُ فلَمْ تَمْلِكْ أَن تَصُولَ»[2].

(١) دلائلُ الإعجاز، قَرَأَهُ وعَلّقَ عليه أبو فِهر محمود محمّد شاكر، مكتبة الخـانجيّ، القـاهرة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص٣٨.

(٢) السّابق، ص٣٩.

هكذا «إِعْجازُ القُـرْآنِ» إذَنْ نِتـاجُ أَوْصـافٍ جـاءَ عَلَيهـا الكِتـابُ العَزيـز؛ وأوصافُ الكِتـابِ، أيِّ كتـابٍ، أَوْصـافٌ لِلْكاتِـبِ، ولِأنّ اللهَ سُـبْحانَهُ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ليس لِكلامِهِ مِثْلٌ.

ومِـن تَمـامِ «الإِعْجـازِ» التّحـدِّي والإنكـارُ عَلَـى القـادِرِ أَن يَقْـدِرَ، فـإِذا «أُعْجِزَ» القادِرُ الكبيرُ، كانَ ذلكَ أَدْعَى إِلَى تَسْليمِ مَن هُوَ أَقَلُّ قُدْرةً هكذا إِلَـى آخِرِ الدّنيا. وقد تَوالَى تَحَدِّي العَرَبِ القادرينَ إِلَى أَن يـأْتُوا ﴿بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤]، وزَعَمُوا بِالإِعلانِ الصَّريحِ أَنّهم قد سَمِعُوا آياتِ اللهِ ولَـوْ شـاؤوا لَقالُوا مِثْلَها، كما قالَ رَبُّنا سُبْحانَهُ في وَصْـفِهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

- إِعْجازُ نَظْمِ القُرْآنِ الكريمِ:

يَرَى الشّيخُ أَنّ عُنْصُرَ الفَصاحةِ والبلاغةِ فـي الكـلامِ إِنّمـا هـو حُسْـنُ نَظْـمِ الكلماتِ وترتيبِها تَرْتيبًا خاصًّـا يَنْشَـأُ عنـه أَقْصَـى دَرَجـاتِ الإِفصـاحِ والإِبْـلاغِ. وهذا عِنْدَه عامٌّ في كُلِّ كلام. وفي هذا يقولُ: «ولَمْ أَزَلْ مُنْذُ خَدَمْتُ العِلْـمَ أَنظُـرُ فيما قالَهُ العُلَماءُ في معنَى «الفَصاحةِ» و«البَلاغةِ» و«البَيانِ» و«البَراعةِ» وفي بَيـانِ المَغْزَى مِن هـذه العِبـاراتِ، وتَفْسِـيرِ المُـرادِ مِنهـا، فأَجِـدُ بعـضَ ذلـك كـالرَّمْزِ والإِيماءِ، والإِشـارةِ فـي خَفـاء، وبَعْضَـه كالتّنبيـه عَلَـى مَكـانِ الخَبـيءِ لِيُطْلَـبَ، ومَوْضِعِ الدَّفينِ لِيُبْحَثَ عَنْهُ فيُخْـرَجَ، وكمـا يُفْـتَحُ لَـكَ الطّريـقُ إِلَـى المطلـوبِ لِتَسْلُكَه، وتُوضَعُ لَكَ القاعِدَةُ لتبنيَ عَلَيها. ووَجَدتُّ المُعَوَّلَ عَلَى أَنّ ههنـا نَظْمًـا وتَرْتِيبًا، وتأليفًا وتركيبًا، وصِياغةً وتَصْويرًا، ونَسْجًا وتحبيرًا»[٣].

هذا إِعْلانٌ مِن شَيْخِ البلاغةِ يُبَيِّنُ فيهِ أَنّهُ كانَ رَدَحًا مِنَ الـزّمَنِ يُلْقِـي بَـيْنَ عَيْنَيهِ هَمًّا لا يُفارِقُه، هو البَحْثُ عن المعنَى الدَّقيقِ والمَغْزَى المُحَـدَّدِ لِأَرْبَـعِ

(٣) نفسه، ص٣٤.

مُفْرَداتٍ تُتداوَلُ بينَ العُلَماءِ لكنَّها لا تحظَى مِنْهُم بِالحَدِّ الجامِعِ المانِعِ الـذي يَشْفي غليلَ طالِبِ العِلْم. وانتهى إِلَى أَنّ حَديثَ العُلَمـاءِ فـي هـذا لا يُوصِـلُ إِلَى الطَّلِبةِ بل يَدُلُّ فقط عَلَى الطّريقِ المُوصِلِ إليها. وأَفْضَى به التّأمُّلُ والتّتبُّعُ إِلَى إبصـارِ الجَـوْهَرِ المَكْنـونِ فـي «الكَيْفيّـةِ الكلاميّـةِ» أَو «الـنَّظْمِ الخـاصِّ» لِلْكلماتِ. وابْتِغاءَ إيضاحِ جَوْهَرِ المَسْألةِ استعملَ الشّيخُ ثَمانيَ مُفْـرَداتٍ لَهـا دِلالةٌ واحِدةٌ مُحَدَّدةٌ، لكنّ المادّةَ التي تُصوّرُ بِهـا هـذه الدِّلالـةُ مختلفـةٌ. أوّلُ مُفْرَدةٍ استعملَها الشّيخُ في التّمثيلِ لِمَعْنى الفصـاحةِ والبلاغـةِ هـي «الـنَّظْمُ». وفي صِحاحِ الجَوْهَريِّ: «نَظَمْتُ اللُّؤلُؤَ: أي جَمَعْتُـه فـي السِّـلْكِ»[٤]. وهـذا السِّلْكُ هو «النِّظامُ»، أي الخَيْطُ الـذي يُـنْظَمُ بـه اللُّؤلـؤ[٥]. واسْـتِعْمالُ تَعْبيـرِ «النَّظْمِ» هنا، وكذا التّعبيراتُ الأُخَرُ، استعارةٌ في الأَصْلِ صارَتْ حَقيقـةً. ولا يَخْفَى أَنّ تَعْبيرَ «نَظْمِ الكلامِ» أَفادَ بَقِيّةً مِـن جَمـالِ نَظْـمِ اللّؤلُـؤ. والظّـاهِرُ أنّ اسْتِعْمالَ «النَّظْمِ» في رَصْفِ الكلامِ حَدَثَ قَبْلَ زَمانِ الشّـيخ، والمُتعـارَفُ أَنّ لِلْجاحِظِ كِتابًا مفقودًا يَحْمِلُ العُنوانَ: «نَظْم القُرْآن».

وقد عُنِيَ الشَّيْخُ بِفِكْرةِ «تَفاوتِ النَّظْمِ» أَو «دَرَجاتِ الإجادةِ» في الـنَّظْمِ. وشَرَحَ الأَمْرَ بِبَيانٍ لا لَبْسَ فيهِ فقالَ: «وأَنّ سَبيلَ هـذه المَعـاني [يُريـدُ: الـنَّظْمَ والتّرتيبَ والتّأليفَ والتّركيـبَ والصِّـياغةَ والتَّصْـويرَ والنَّسْـجَ والتّحبيـرَ] فـي الكلامِ الذي هي مَجازٌ فِيهِ، سَبيلُها في الأَشْياءِ التي هي حَقِيقةٌ فيها، وأَنّهُ كمـا يَفْضُلُ هنـاكَ الـنَّظْمُ الـنَّظْمَ، والتّـأليفُ التّـأليفَ، والنَّسْـجُ النَّسْـجَ، والصِّـياغةُ الصِّياغةَ، ثُمّ يَعْظُمُ الفَضْلُ وتكثُرُ المَزِيّةُ، حتّى يَفُوقَ الشَّيءُ نَظِيرَهُ والمُجانِسَ

(٤) الصِّحاح في اللّغة والعلوم - تجديد صِحاح العلّامة الجـوهريّ، إعـداد وتَصْـنيف نـديم مَرْعَشْلي وأسامة مَرْعَشْلي، دار الحضارة العربيّة، بيروت، ج٢ ص٥٨٣.

(٥) الرّازيّ، مختارُ الصِّحاح، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٨م، ص٢٧٨.

لَهُ دَرَجاتٍ كثيرةً، وحَتّى تَتفاوتَ القِيَمُ التّفاوتَ الشّديدَ، كذلك يَفْضُلُ بَعْضُ الكَلامِ بَعْضًا، ويَتقدَّمُ مِنهُ الشّيءُ الشَّيْءَ، ثمّ يَزْدادُ فَضْلُه ذلك ويَتَرَقّى منزلةً فَوْقَ منزلةٍ، ويَعْلُو مَرْقَبًا بَعْدَ مَرْقَبٍ، ويُسْتَأنَفُ له غايةٌ بَعْدَ غايةٍ، حتّى ينتهيَ إِلَى حَيْثُ تَنقَطِعُ الأَطْماعُ، وتَحْسَرَ الظُّنونُ، وتَسْقُطَ القُوَى، وتَسْتَوِيَ الأَقْدامُ في العَجْز» [دلائل ص٣٥].

وعِنْدَ الشّيخِ هنا أَنّ «إعجازَ القُرْآنِ» البَيانيَّ هو بِدِقّةٍ «إِعْجازُ نَظْمِه». وقد فَسَّرَ «الإعجازَ» عِنْدَ المُعْجَزِينَ مِن الفُصحاءِ والبُلَغاءِ بِأَنّهُ لَوْ حَدَثَ أَن سابَقَ أعاظِمُ هؤلاءِ بِفَصاحَتِهم وبَلاغَتِهم فَصاحةَ القُرْآنِ وبلاغتَه في مَيْدانِ سِباقٍ واحِدٍ لَبَلَغَتْ فَصاحَتُه وبَلاغتُه مَكانًا انقطعَتْ أَطْماعُهم دُونَه، وكَلَّتْ ظُنُونُهم مِن التَّعَبِ، وسَقَطَتْ قُواهُم، وتَساوَتْ أَقْدامُهم في العَجْز.

وما فَصاحةُ القُرْآنِ وبَلاغتُه المُعْجِزةُ هذه إِلّا «نَظْمَ القُرْآن». وتعني الغايةُ القُصْوَى في الفَصاحةِ والبَلاغةِ الغايةَ القُصْوَى في «رَوْعةِ النَّظْم». ويَعْني ذلك أَنّ «نَظْمَ القُرْآنِ» يُحْدِثُ أَعْلَى دَرَجاتِ الإبانةِ والإبلاغِ عِنْدَ مُتَلَقِّي القُرْآن. وفي هذه النُّقْطةِ، ينبغي الخُلُوصُ إِلَى أَسْبابٍ واضِحةٍ مَلْمُوسةٍ تَجْعَلُ مِن «نَظْمِ القُرْآن» أَفْصَحَ نَظْمٍ وأَبْلَغَه.

– ماهِيّةُ النَّظْمِ، وسَبيلُ تَحْقيقِ أَفْصَحِ النّظْوم:

يَخْلُصُ الشّيخُ في مُناقَشةِ الفَصاحةِ والبلاغةِ، مُسْتَعْمِلًا أحيانًا تَعْبيرَ الفَصاحةِ وَحْدَه قاصِدًا الاثنَيْنِ، إِلَى القَوْلِ إِنّ الفَصاحةَ «عِبارةٌ عن مَزِيّةٍ أَفادَها المُتكلِّمُ في المعنَى»(٦). ويَعْني ذلكَ أَنّ المُتكلِّمَ أَمامَهُ إِمْكانيّاتٌ هائلةٌ لِتَقْديمِ المعنَى وتَخْليقِه وتَشْكيلِه، وتكونُ فَصاحَتُه عَلَى دَرَجةٍ مِن القُوّةِ تُناسِبُ قُدْرتَه عَلَى «إِتيانِ المعنَى مِن الجِهَةِ التي هي أَصَحُّ لِتأديتِهِ وإِلْباسِهِ اللّفظَ الذي هو

(٦) دلائل الإعجاز، ص٤٠٢.

أَخَصُّ به، وأكشَفُ عنهُ، وأتمُّ لَهُ، وأَحْرَى بِأن يَكْسِبَه نُبْلًا، ويُظْهِرَ فيه مَزِيّةً»[٧]. والمُحصَّلُ مِن هذا أَنّ «الفَصاحةَ» مَزيّةٌ أَو فَضيلةٌ يُحقِّقُها المتكلِّمُ الماهِرُ في المعنَى الذي يأتي به. وتحقيقُ المزيّةِ المَعْنَويّةِ هذا حَدّدَ الشّيخُ أَدَواتِه مِن جِهَتَيْنِ؛ جِهَةِ المعنَى، وذلكَ بِأَنْ يُؤتَى المعنَى مِن الجِهَةِ التي أَصَحُّ لِتأديتِه؛ وجِهَةِ اللّفظِ، وذلك بِأَن يُختارَ لِأداءِ المعنَى اللّفظُ الأخصُّ به، الأكشَفُ عنه، الأتمُّ له. وإِنّهُ بِهذَيْنِ الصَّنِيعَيْنِ تَحْصُلُ فصاحةُ الكلام.

وابْتِغاءَ تَحْقيقِ جَلِيّةِ الأَمْرِ، بَيّنَ الشّيخُ أَنّ الفَعالِيّتَيْنِ إِنّما تُحقَّقانِ مِن خِلالِ «النَّظْمِ». وحَدّدَ هذَيْنِ العُنْصُرَين: إِتْيانَ المعنَى مِن أَصَحِّ الجِهاتِ واختيارَ اللّفظِ الأَخَصِّ به، في حَدِّ النَّظْمِ حِينَ قال: «ما أَظُنُّ بِكَ أَيُّها القارئ لِكِتابِنا، إِن كُنْتَ وفَّيْتَهُ حَقّهُ مِن النَّظَرِ وتدبَّرْتَه حَقَّ التَّدَبُّرِ، إِلّا أَنّكَ قد عَلِمْتَ عِلْمًا أَبَى أَن يكونَ لِلشّكِّ فيه نَصيبٌ، ولِلتّوقُّفِ نَحْوَكَ مَذْهَبٌ، أَن ليسَ «النَّظْمُ» شَيئًا إِلّا تَوَخِّيَ مَعاني النَّحْوِ وأَحْكامِه ووُجُوهِه وفُروقِه فيما بَيْنَ مَعاني الكَلِمِ»[٨].

وفي المُتناوَلِ أَن يقولَ المُتأمِّلُ إِنّ الشّيخَ جَعَلَ غايةَ الفَصاحةِ في غايةِ جَوْدَةِ النّظْم، وغايةَ جَوْدةِ النَّظْمِ في إِتيانِ المعنَى مِن الجِهَةِ التي هي أَصَحُّ لِتأديتِه واختيارِ اللّفظِ الأخصِّ به لِبَيانِه، وغايةَ ذلك في خَيْرِ تَوَخٍّ لِمَعاني النَّحْوِ في مَعاني الكَلِم.

ولا مِراءَ البَتّةَ في أَنّ مَن أَمْسَكَ بِقُوّةٍ بِتَوخِّي، أو تَطلُّبِ، مَعاني النَّحْوِ في معاني الكَلِم، طِرازٌ فَذٌّ مِن البَشَر؛ وأَنّ نَظْمَ القُرْآنِ طِرازٌ فَذٌّ تمامًا في النَّظْمِ، وأَنّ طالِبَ دَليلِ الإعجازِ مِن نَظْمِ القُرْآنِ ليسَ له أَن يَطْلُبَه إِلّا في تَوَخِّي مَعاني النَّحْوِ في مَعاني الكَلِم. وفي هذا يقولُ الشّيخُ: «فَإِذا ثَبَتَ الآنَ أَن لا

(٧) السّابق، ص٤٣.

(٨) نفسُه، ص٣٣٣.

شَكَّ ولا مِرْيةَ في أَن ليسَ «النَّظْمُ» شيئًا غَيْرَ تَوَخِّي مَعاني النَّحْوِ وأَحْكامِهِ فيما بَيْنَ مَعاني الكَلِمِ، ثَبَتَ مِن ذلك أَنّ طالِبَ دَليلِ الإعجازِ مِن نَظْمِ القُرْآنِ، إذا هو لَمْ يَطْلُبْه في مَعاني النَّحْوِ وأَحْكامِهِ ووُجُوهِه وفُرُوقِه، ولم يَعْلَمْ أَنّها مَعْدِنُه ومَعانُه، ومَوْضِعُه ومَكانُه، وأَنَّهُ لا مُسْتَنْبَطَ له سِواها، وأَن لا وَجْهَ لِطَلَبِهِ فيما عَداها، غارٌّ نَفْسَهُ بِالكاذِبِ مِنَ الطَّمَعِ، ومُسْلِمٌ لَها إِلَى الخُدَعِ، وأَنَّهُ إِن أَبَى أَن يكونَ [الإعجازُ] فيها، كانَ قد أَبَى أَن يكونَ القُرْآنُ مُعْجِزًا بِنَظْمِه، ولَزِمَهُ أَن يُثْبِتَ شيئًا آخَرَ يكونُ مُعْجِزًا به»[٩].

ويُسْتَفادُ مِن جُمْلةِ مَقُولِ الشَّيخِ في هذا الشّأنِ أَنّ القُرْآنَ الكريمَ حَقّقَ أَقْصَى دَرَجةٍ في رَوعةِ النَّظْمِ؛ لِتَحْقيقِه أَقْصَى دَرَجَةٍ في رَوعةِ تَوَخِّي مَعاني النَّحْوِ في مَعاني الكَلِم. وقد فَصَّلَ الشّيخُ ذلكَ في مُناسَباتٍ كثيرةٍ في الدَّلائل، ومِن الأَظْهَرِ في ذلك قَوْلُه مَثَلًا: «أَفلا تَرَى أَنَّهُ لا يَقَعُ في نَفْسِ مَن يَعْقِلُ أَدْنَى شيءٍ - إذا هُوَ نَظَرَ إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وإِلَى إِكْبارِ النّاسِ شأنَ هذه الآيةِ في الفَصاحة - أَن يَضَعَ يَدَهُ عَلَى كلمةٍ مِنْها فيقولَ: «إِنّها فَصيحةٌ؟»- كيفَ؟- وسَبَبُ الفصاحةِ فِيها أُمُورٌ لا يَشُكُّ عاقِلٌ في أَنّها مَعْنَوِيّةٌ:

أَوّلُها: أَن كانَتْ «عَلَى»، فيها، مُتَعلِّقةً بِمَحْذُوفٍ في مَوْضِعِ المفعولِ الثّاني.

والثّاني: أَنْ كانَتِ الجُمْلةُ، التي هي «هُمُ العَدُوُّ»، بَعْدَها عارِيةً مِن حَرْفِ عَطْف.

والثّالِثُ: التَّعْريفُ في «العَدُوّ» وأَن لَمْ يَقُلْ: «هُمْ عَدُوٌّ».

= ولَوْ أَنّكَ عَلَّقْتَ «عَلَى» بِظاهِرٍ، وأَدْخَلْتَ عَلَى الجُمْلةِ التي هي «هُمُ العَدُوُّ» حَرْفَ العَطْفِ، وأَسْقطتَّ «الأَلِفَ واللّامَ» مِن «العَدُوّ» فَقُلْتَ:

(٩) نفسُه، ص٥٢٦.

«يَحْسَبُونَ كُلَّ صيحةٍ واقِعةً عَلَيهم، وهُمْ عَدُوٌّ»، لَرَأيتَ الفَصاحةَ قد ذَهَبَتْ عنها بأسْرِها. ولو أَنّكَ أَخْطَرْتَ ببالِكَ أَن يكونَ «عَلَيهِم» مُتَعلِّقًا بِنَفْسِ «الصَّيْحةِ»، ويكونَ حالُه مَعَها كحالِهِ إذا قُلْتَ: «صِحْتُ عَلَيْهِ»، لَأَخْرَجْتَه عن أَن يكونَ كَلامًا، فَضْلًا عن أَن يكونَ فَصيحًا. وهذا هو الفَيْصَلُ لِمَنْ عَقَلَ»[١٠].

وتَوَخِّي مَعاني النَّحْوِ في مَعاني الكَلِمِ مجموعُ أفْعالٍ في نَفْسِ المُتَكلِّمِ يُحَقَّقُ بِقَدْرٍ هائلٍ مِن السُّرْعةِ لا يأذَنُ بِتَعَقُّلٍ مُتَمهِّلٍ يُثْبِتُ ويَحْذِفُ ويُغيِّرُ ويُبْدِل. ولَعَلّ صُحارَ بنَ عَيّاشٍ العَبْديَّ[١١] قد عَبّرَ عن ذلكَ حِينَ سُئِلَ: «ما هذِه البلاغةُ فِيكُم؟- فقالَ: شيءٌ تَجيشُ بِهِ صُدُورُنا فتَقْذِفُه عَلَى أَلْسِنتِنا». وكانَ الرَّجُلُ قد سُئِلَ عن ماهِيّةِ الفَصاحةِ والبلاغةِ في قَوْمِه «عَبْدِ القَيْس»، الذينَ كَثُرَ في ساحَتِهم الشُّعَراءُ والخُطَباءُ. ورُبّما يكونُ ما أَتَى به الجاحِظُ [ت ٢٥٥هـ] أَبْيَنَ لِلْأَمْرِ، حِينَ قابَلَ بَيْنَ كلامِ العَجَمِ وكلامِ العَرَبِ، فقالَ: «وكُلُّ شَيْءٍ لِلْعَرَبِ فإنّما هُوَ بَديهةٌ وارْتِجالٌ، وكأنّهُ إلْهامٌ، ولَيْسَتْ هناكَ مُعاناةٌ ولا مُكابَدَةٌ، ولا إجالةُ فِكْرٍ ولا اسْتِعانةٌ، وإنّما هُوَ أَن يَصْرِفَ وَهْمَهُ إلَى الكلامِ، وإلَى زَجْرِ يَوْمِ الخِصامِ، أَو حِينَ يَمْتَحُ عَلَى رَأسِ بِئرٍ، أَو يَحْدُو بِبَعيرٍ، أَو عِنْدَ المُقارَعةِ أَو المُناقَلَة(*)، أَو عِنْدَ صِراعٍ أَو في حَرْبٍ، فما هُوَ إلّا يَصْرِفَ وَهْمَهُ إلَى جُمْلَةِ المَذْهَبِ، وإلَى العَمودِ الذي إليهِ يَقْصِدُ، فتأتيهِ المَعاني أَرْسالًا، وتَنْثالُ الأَلْفاظُ انثيالًا»[١٢].

---

(١٠) نفسُه، ص٤٠٣-٤٠٤.

(١١) صُحارُ بنُ عَيّاشٍ (أو عَبّاس) بنِ شَراحيل بنِ مُنْقِذٍ العَبْدِيُّ، مِن بني عَبْدِالقَيْس، خَطيبٌ مُفَوَّهٌ، كانَ مِن شِيعةِ عُثْمانَ. لَهُ صُحْبةٌ وأخبارٌ حَسَنةٌ. تُوَفِّيَ حَوالَي ٤٠ للهجرة. يُنظَرُ: الأعلامُ لِلزِّرْكليّ ٣/ ٢٠١.

(*) المُناقَلَةُ في الحديثِ أَن تُحدِّثَ الشّخصَ ويُحدِّثَك.

(١٢) البيان والتّبيين، تحقيق عبدالسّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ج٣ ص٢٨.

ولِأَنّ عُنْصُرَ الفَصاحةِ في صَميمِ النَّظْمِ، ولِأَنّ النَّظْمَ عَيْنُ تَوَخِّي مَعانيَ النَّحْوِ في مَعاني الكَلِمِ، لَمْ يَجِدِ الشّيخُ بَأسًا في تَكْرارِ التّمثيلِ لِذلك، لِكَي لا يُبْقِيَ أَثارةً مِن تَرَدّدٍ في التّسليمِ بِما كانَ دافِعَه الأوّلَ القَويَّ إِلَى تأليفِ كِتابِه دَلائل الإعجاز. ومِن ساطِعِ البُرْهانِ عِنْدَه عَلَى ذلك قَوْلُه:

واعْلَمْ أَنّكَ تَجِدُ هؤلاءِ الذينَ يَشُكُّونَ فيما قُلْناهُ، تَجْري عَلَى أَلْسِنتِهم أَلْفاظٌ وعِباراتٌ لا يَصِحُّ لَها مَعْنًى سِوَى تَوَخِّي مَعاني النَّحْوِ وأَحْكامِهِ بَيْنَ مَعاني الكَلِمِ، ثُمّ تَراهُم لا يَعْلَمونَ ذلكَ، فَمِن ذلكَ ما يَقُولُه النّاسُ قاطِبَةً مِن أَنّ العاقِلَ يُرَتِّبُ في نَفْسِه ما يُرِيدُ أَن يَتكلَّمَ به. وإِذا رَجَعْنا إِلَى أَنْفُسِنا لَمْ نَجِدْ لِذلكَ معنًى سِوَى أَنّهُ يَقْصِدُ إِلَى قَوْلِكَ: «ضَرَبَ» فَيَجْعَلُه خَبَرًا عن «زَيْدٍ»، ويَجْعَلُ «الضَّرْبَ» الذي أَخْبَرَ بِوُقُوعِهِ مِنْهُ واقِعًا عَلَى «عَمْرٍو»، ويَجْعَلُ «يَوْمَ الجُمُعةِ» زَمانَهُ الذي وَقَعَ فيه، ويَجْعَلُ «التّأديبَ» غَرَضَهُ الذي فَعَلَ «الضَّرْبَ» مِن أَجْلِه، فيَقُولُ: «ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْرًا يَوْمَ الجُمُعةِ تأديبًا لَهُ». وهذا، كما تَرَى، هُوَ تَوَخِّي مَعاني النَّحْوِ فِيما بَيْنَ معاني هذه الكَلِم. ولَوْ أَنّكَ فَرَضتَّ أَن لا تَتَوَخَّى في «ضَرَبَ» أَن تجعَلَه خَبَرًا عن «زَيْد»، وفي «عَمْرٍو» أَن تَجعَلَهُ مفعولًا به لِلضَّرْبِ، وفي «يَوْمِ الجُمُعةِ» أَن تَجْعَلَهُ زَمانًا لِهذا الضَّرْبِ، وفي «التّأدِيبِ» أَن تَجعَلَهُ غَرَضَ زَيْدٍ مِن فِعْلِ الضَّرْبِ = ما تَصَوَّرَ في عَقْلٍ، ولا وَقَعَ في وَهْمٍ، أَن تكونَ مُرَتِّبًا لِهذه الكَلِم. وإِذ قَدْ عَرَفْتَ ذلك، فَهُوَ العِبْرةُ في الكلامِ كُلِّه، فَمَن ظَنّ ظَنًّا يُؤدِّي إِلَى خِلافِهِ، ظَنّ ما يَخْرُجُ به عن المعقول[١٣].

ويُفْهَمُ مِن كلامِ الشَّيْخِ في هذا الشّأنِ أَنّ إِحْسانَ النَّظْمِ وتَجْويدَ تَعْليقِ الكَلِمِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ في أَثناءِ إِنتاجِ الكلامِ قابليّةٌ عِنْدَ بَعْضِ المُتحدِّثينَ بِاللّغةِ تُنَمَّى بِاسْتِماعِ نَماذِجِ الكلامِ المُتْقَنِ واسْتِظهارِه والإِكْثارِ مِن ذلك.

(١٣) دلائلُ الإعجاز، ص٤٠٥.

ويَظَلُّ عِنْدَنا هُنا أَمْرانِ مُهمّانِ مُتباينانِ؛ وهُما إِنْتاجُ النَّظْمِ الرّفيعِ والتَّعْليقِ الفائقِ، وتقديرُ هذا النَّظْمِ الرّفيعِ حَقَّ قَدْرِه. ويَؤولُ بِنا الأَمْرُ الثّاني إِلَى ضَرورةِ أَن يُسْألَ: ما أَهْليّةُ الذينَ مِن شأنِهم أَن يُصْدِرُوا حُكْمًا صَحيحًا عَلَى النَّظْمِ؟- أَو عَلَى نَحْوٍ أَقْرَبَ إِلَى حاقِّ ما نحنُ إزاءَهُ: ما أَهْلِيّةُ مَن تَحَدّاهُم القُرْآنُ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِه؟. ثُمّ، ألا يَعْني التَّحدِّي مِنَ القُرْآن، وإِبْداءُ العَجْزِ مِنْهُم، أَنّهم مُدْهَشُونَ إِلَى أقصَى دَرَجاتِ الدَّهْشةِ مِمّا أَدْرَكُوا مِن عَظَمةِ نَظْمِ القُرْآنِ وتَناهي تَوَخِّي مَعاني النَّحْوِ في مَعاني الكَلِمِ فيه؟.

يُفْهَمُ مِن تاريخِ نُزولِ القُرْآن، أَنّهُ نَزَلَ عَلَى قَلْبِ أَفْصَحِ العَرَبِ عَلَى الإطلاقِ، وأَنّهُ، عَلَيهِ الصّلاةُ والسّلامُ، كانَ يَحْفَظُ ما يَنْزِلُ عَلَيه مِنهُ، وأَنّهُ كانَ يَتْلُو ذلكَ عَلَى مَن رَضِيَ الإسلامَ دِينًا، وصَحِبَ نَبيَّهُ ولَزِمَه، وأَنّ المُتحدَّيْنَ بأن يَأْتُوا بِحَديثٍ مِثْلِه هم الأَفْصَحُ والأَبْلَغُ والأَقْدَرُ عَلَى تمييزِ جَيِّدِ الكلامِ مِن رَديئِه، والأَعْلَمُ بِمَوالِجِه في النّفوس. وثَمّةُ رواياتٌ كثيرةٌ تَتظاهَرُ عَلَى تأكيدِ أَنّ المُعْجَزينَ مِن عَرَبَ الفصاحةِ كانُوا الأكثَرَ انْفِعالًا وتأَثُّرًا بِنَظْمِ القُرْآنِ وتَوَخِّيهِ مَعاني النّحو في مَعاني الكَلِم. وفي هذا جاء قولُ الشّيخ:

وإِذا رَأَيْنا «الأَحْوالَ» و«الأَقْوالَ» مِنهُم قد شَهِدَتْ، كالذي بانَ، بِاسْتِسْلامِهم لِلْعَجْزِ وعِلْمِهم بِالعظيمِ مِن الفَضْلِ والبائنِ مِنَ المَزيّة، الذي إِذا قِيسَ إِلَى ما يستطيعونَهُ ويَقْدِرُونَ عَلَيهِ في ضُروبِ النَّظْمِ وأنواعِ التّصرُّفِ فاتَهُ الفَوْتَ الذي لا يُنالُ، وارتقَى إِلَى حَيْثُ لا تَطْمَحُ إِلَيْهِ الآمالُ، فقد وَجَبَ القَطْعُ بِأَنّهُ مُعْجِزٌ[١٤].

- النَّظْمُ الإلهيُّ القُرْآنيُّ والعَجْزُ البَشَريُّ عَنِ الإتْيانِ بِمِثْلِه:

القُرْآنُ الكريمُ كِتابُ اللهِ المُبينُ الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٢]. وما فِيهِ مِن نَظْمٍ وتَوَخٍّ لِمَعاني النَّحْوِ في مَعاني الكَلِم،

(١٤) نفسُه، ص٥٨٦.

شَأنٌ إلهيٌّ في عَقِيدةِ أَهْلِ الإِسْلامِ. ويُؤمِنُ مَن أُوتُوا قَدْرًا كافيًا مِن العِلْمِ مِنْهُم أَن لا أَحَدَ، مَهْما أُوتِيَ مِنَ القُدْرةِ البَيانيّةِ واللَّسَنِ والفَصاحةِ، قادِرٌ عَلَى أَن يأتيَ بِنَظْمٍ في فَصاحَةِ نَظْمِه، أو تَوَخٍّ لِمَعاني النَّحْوِ في مَعاني الكَلِمِ، في كلامٍ مِثْلِ تَوَخِّيهِ الماثِلِ فيه. وهذا مَعْنَى أَنَّهُ مُعْجِزٌ.

وإِذْ قد وَجَبَ القَطْعُ بِأنّ القُرْآنَ مُعْجِزٌ في نَظْمِه، كما تَقدَّمَ في كلامِ الشّيخ، رُبَّما يكونُ مُفِيدًا كثيرًا التّأمُّلُ في مَصْدَرِ الإعجازِ النَّظْميِّ. ورُبّما تَتمثَّلُ الفائدةُ في إِدْراكِ شَيءٍ مِن عَظَمةِ الحَقِّ تعالى في قُدْرتِه، التي لا يَشْرَكُه فيها كائنٌ، عَلَى الإِتْيانِ بِالآيةِ الكلاميّة. وابْتغاءَ الدُّنُوِّ أكثَرَ مِن عَقْلِ القارئ لِكلامِنا هذا، نَنْقُلُ له طَرَفًا مِمّا ذَكَرَ الشّيخُ في وَصْفِ عَمَليّةِ إنتاجِ السِّلْسِلةِ الكلاميّةِ البَشَريّة؛ لِكَي يكونَ في مُتناوَلِ هذا القارئ مُتابَعةُ ما سنقولُ في الشّأنِ المَعْنيّ، حَيْثُ يَتحدّثُ الشّيخُ عَمّا يمكنُ أَن نُسَمِّيَهُ تَفكيرَ المُتكلِّمِ في أثناءِ إنتاجِ الكلامِ بِأفْضَلِ مَعاني الكَلِم لِمَعاني النّحو. ومَعاني النّحوِ هي الابتداءُ والإِخبارُ والفِعْليّةُ والفاعِلِيّةُ والمفعوليّةُ والحاليّةُ والسَّبَبيّةُ والإضافة.. إلخ. ومَعاني الكَلِمِ هي المَعاني التي وَضَعَها الواضِعُ الأَوّلُ لِكلماتِ اللّغة، أو ما يُعْرَفُ بِالمَعاني المُعْجَميّة. يقولُ الشّيخُ:

واعْلَمْ أَنِّي لَسْتُ أَقولُ إِنّ الفِكْرَ لا يتعلّقُ بِمَعاني الكَلِمِ المُفْرَدةِ أَصْلًا، ولكنّي أقولُ إِنّهُ لا يتعلّقُ بِها مُجَرَّدةً مِن مَعاني النَّحْوِ، ومنطوقًا بِها عَلَى وَجْهٍ لا يتأَتَّى مَعَهُ تقديرُ مَعاني النَّحْوِ وتَوَخّيها فيها، كالذي أَرَيْتُكَ، وإِلّا فَإِنّكَ/ إِذا فَكَّرْتَ - في الفِعْلَيْنِ أَو الاسْمَيْنِ، تُريدُ أَن تُخْبِرَ بِأَحَدِهما عَنِ الشّيءِ أَيُّهما أَوْلَى أَن تُخْبِرَ به عَنْهُ وأَشْبَهُ بِغَرَضِكَ، مِثْلُ أَن تَنْظُرَ: أَيُّهما أَمْدَحُ أَو أَذَمُّ، أو فَكَّرْتَ في الشّيئَيْنِ تُرِيدُ أَن تُشبِّهَ الشّيءَ بِأَحِدهما أَيُّهما أَشْبَهُ - كُنْتَ قد فَكَّرْتَ في مَعاني أَنْفُسِ الكَلِم، إِلّا أَنّ فِكْرَكَ ذلكَ لم يَكُنْ إِلّا مِن بَعْدِ أَن

تَوَخَّيْتَ فيها معنًى مِن مَعاني النّحو؛ وهو أَنْ أردتَّ جَعْلَ الاسْمِ الذي فكّرتَ فيه خَبَرًا عن شيءٍ أردتَ فيه مَدْحًا أَو ذَمًّا أو تشبيهًا، أَو غَيْرَ ذلكَ مِن الأَغْراضِ، ولم تَجِئ إِلَى فِعْلٍ أَو اسْمٍ ففكّرتَ فِيهِ فَرْدًا، ومِن غَيْرِ أَن كانَ لَك قَصْدٌ أَن تجعَلَه خَبَرًا أَو غَيْرَ خَبَر. فاعْرِفْ ذلك.

وإِن أردتَّ مِثالًا فَخُذْ بَيْتَ بَشّارٍ:

كأَنَّ مُثارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤوسِنا وأَسْيافَنا لَيْلٌ تَهاوَى كواكِبُهْ

وانْظُرْ: هَلْ يُتصوَّرُ أَن يكونَ بَشّارٌ قد أَخْطَرَ مَعانيَ هذه الكَلِمِ بِبالِه أَفْرادًا عارِيةً مِن معاني النَّحْوِ التي تَراها فيها، وأَن يكونَ قد وَقَعَ «كأنّ» في نَفْسِه مِن غَيْرِ أَن يكونَ قَصَدَ إِيقاعَ التّشبيهِ مِنْهُ عَلَى شيءٍ، وأَن يكونَ فَكَّرَ في «مُثارَ النَّقْعِ» مِن غَيْرِ أَن يكونَ أرادَ إضافةَ الأَوّلِ إِلَى الثّاني(١٥)...

هذا تَفْسيرٌ واضِحٌ لِعَمليّةِ النَّظْمِ، أو تَوَخّي مَعاني النَّحْوِ في مَعاني الكَلِم، في عَقْلِ مُنْتِجِ الكلامِ مِن البَشَر. ولا يمكنُ أَن يُقالَ مِثْلُ هذا عَنِ النَّظْمِ الإلهيِّ في كتابِ الله، لكنّ النّتيجةَ واحِدةٌ: نَظْمٌ إِلهيٌّ ونَظْمٌ بَشَريٌّ. أَمّا الفَصاحةُ والبلاغةُ ففي غايةِ التّبايُنِ؛ فَنَظْمُ القُرْآنِ لا يُدانِيهِ نَظْمٌ أَيًّا كان. والعَجَبُ العُجابُ أَنّ نَظْمَ القُرْآنِ فِيهِ تَمامُ «الطّلاوةِ» التي تَعْني: الحُسْنَ والبَهْجةَ والقَبولَ والسِّحْر(١٦). أَمّا النَّظْمُ البَشَريُّ فَلَيْسَ فِيهِ البَتّةَ قَدْرٌ ولو كانَ ضَئيلًا مِن مُشابَهةِ النَّظْمِ الإلهيّ. النَّظْمُ القُرْآنيُّ مَجْلًى مِن مَجالي العَظَمةِ الإلهيّةِ، والنَّظْمُ البَشَريُّ هِبَةٌ إِلهيّةٌ لِأَفْرادٍ مِنَ البَشَر. ويَقُولُ رَبُّنا سُبْحانَه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]. **فالنَّظْمُ القُرْآنيُّ وَصْفٌ إلهيٌّ. لكنَّ تَأَمُّلَ النَّظْمِ الإلهيِّ وتَبَيُّنَ بَعْضِ لَطائِفِهِ ومَجالي خلابَتِه وسِحْرِ بَيانِهِ**

(١٥) نفسُه، ص٤١٠-٤١١.

(١٦) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط، مادّة «الطّلاوة». ويَجُوزُ في طاءِ الكلمةِ الضّمُّ والفَتْحُ والكَسْرُ.

داخِلٌ، واللهُ أَعْلَمُ، في تَعَرُّفِ عَظَمةِ الكلامِ الإلهيِّ، وصِدْقِ انْتسابِهِ إِلَى اللهِ سُبْحانَه، والتَّصْدِيقِ بِرِسالةِ النّبيِّ الذي أُوحِيَ إليه هذا القُرْآنُ. عَلَى أَنّ تَسْلِيمَ أَجْيالِ المُسْلِمينَ مُنْذُ أوّلِ الأَمْرِ إِلَى ما لا نِهايةَ له بِأنّ القُرْآنَ مُعْجِزٌ في نَظْمِهِ وتَوَخِّيهِ مَعاني النّحوِ في مَعاني الكَلِم، داعِيَةٌ لَهُم عَلَى الدَّوامِ إِلَى التَّبَصُّرِ في كُنْهِ هذا المُعْجِزِ وحَقيقتِه وعُنْصُرِه المُتميِّز. ويَعْني هذا أَنّهُ يَظَلُّ واجِبًا عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، قادِرٍ عَلَى التّبصُّرِ في تَفاضُلِ الأساليبِ وتَمايُزِ طَرائقِ التّعبيرِ وأَفْضالِ المَعاني النّاشئةِ عن التّصرّفاتِ في صِياغةِ العبارات، أَن يَجْتَهِدَ في تَلَمُّسِ المَزايا والفَضائلِ وتَحْديدِ أَسْبابِ نَشْأتِها وتخلُّقِها وتَحقُّقِها. وقد تنبّهَ شَيْخُ البلاغةِ الجُرْجانيُّ إِلَى ذلكَ وجَعَلَه مِن أَدِلّةِ العَقْلِ والدِّينِ، فقالَ مَثَلًا:

أَيُّ أَشْبَهُ بِالفَتَى في عَقْلِهِ ودِينِه، وأَزْيَدُ لَهُ في عِلْمِهِ ويَقينِه: أَأَنْ يُقلِّدَ في ذلك، ويَحْفَظَ مَتْنَ الدَّليلِ وظاهِرَ لَفْظِه، ولا يَبْحَثَ عن تَفْسيرِ المَزايا والخَصائصِ: ما هِيَ؟- ومِن أينَ كَثُرَتِ الكَثْرةَ العَظيمةَ واتّسَعَتِ الاتّساعَ المُجاوِزَ لِوُسْعِ الخَلْقِ وطاقةِ البَشَرِ؟- وكيفَ يكونُ أَن تَظْهَرَ، في أَلْفاظٍ مَحْصُورةٍ وكَلِمٍ مَعْلُومةٍ، بِأن يُؤتَى بِبَعْضِها في إِثْرِ بَعْضٍ، لَطائفُ لا يَحْصُرُها العَدَدُ، ولا يَنْتَهي بِها الأَمَدُ؟- أَم أَن يَبْحَثَ عن ذلكَ كُلِّهِ، ويَسْتَقْصِيَ النَّظَرَ في جَميعِه، ويَتَتَبَّعَهُ شيئًا فَشيئًا، ويَسْتَقْصِيَه بابًا فَبابًا، حَتّى يَعْرِفَ كُلًّا مِنْهُ بِشاهِدِه ودَليلِه، ويَعْلَمَه بِتَفْسيرِه وتأويلِه[١٧].

ولا يَخْفَى هُنا أَنّ العَقْلَ الباحِثَ عن تَفْسيرِ المَزايا والخَصائصِ التي ينطوي عَلَيها نَظْمُ القُرْآنِ، طالِبٌ مَعْرِفةَ اللهِ سُبْحانَهُ مِن الدّليلِ اللُّغَويِّ، مُلْتَمِسٌ دَلائلَ الإعْجازِ في مَظانِّها، مُهْتَدٍ إِلَى الطّريقةِ التي هي أَقْوَمُ الطُّرُق.

(١٧) دلائلُ الإعجاز، ص٤٠.

- إِدْراكُ المَزايا والخَصائصِ في نَظْمِ القُرْآنِ الكريم:

يَبْدُو أَنّ إِدْراكَ المَزايا والخَصائصِ في نَظْمِ القُرْآنِ أَدْنَى إِلَى أَن يكونَ ضَرْبًا مِن الاسْتجابةِ العامّةِ المَبْنيّةِ عَلَى التّأَثُّرِ الذي يُحَرِّكُ النَّفْسَ ويَهُزُّ الطَّبْعَ، كالذي جاءَ في قَوْلِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صِفةِ القُرْآن: «لا يَتْفَهُ ولا يَتَشانُّ»، وقالَ: «إِذا وَقَعْتُ في «آلِ حمٓ» وَقَعْتُ في رَوْضاتٍ دَمِثاتٍ أَتأَنّقُ فِيهنّ»، أَي: أَتتبّعُ مَحاسِنَهُنّ»[١٨].

شاءَ سُبْحانَه أَن يكونَ القُرْآنُ بابًا مفتوحًا عَلَى عالَمِ الإيمانِ والإِذْعانِ والانْشِدادِ إِلَى الخالِقِ العظيم. والظّاهِرُ مِمّا تَرامَى إِلَيْنا مِن رِواياتٍ أَنّ كثيرًا مِمّن سَمِعَ القُرْآنَ يُتْلَى، حتّى إِذا كانَ هذا لا يَعْرِفُ شيئًا مِن العَرَبيّة، يُؤنِسُ في نَفْسِه اسْتجابةً خاصّةً وحالةً انفعاليّةً، أَبْرَزُ مَظاهِرِها أَنّ رُوحَهُ يَنْسَحِبُ مِن المَوْضِعِ الذي هو فِيهِ مِن شُؤونِ الدّنيا إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ، حتّى لَكأَنّهُ يقولُ في نَفْسِه: أَنا مِن هذا العالَمِ، فلِمَ بَقِيتُ بَعِيدًا عنه طَويلًا؟!

ويَخالُ المَرْءُ أَنّ عَظَمةَ دَرَجةِ جودةِ النَّظْمِ في القُرْآنِ الكريمِ دَلِيلٌ قَوِيٌّ مِن دَلائلِ إِعجازِه، وبَيِّنةٌ لا تُرَدُّ عِنْدَ تَلَمُّسِ أَسْبابِ الخلابةِ في الكتابِ العزيزِ، لكنْ أيضًا في لُغةِ القُرْآنِ عَناصِرُ تأثيرٍ أُخَرُ، بَعْضُها مِمّا أدرَكَهُ بَعْضُ البَشَرِ، وبَعْضُها مِمّا لَمْ يُدْرَكْ. ولِأَنّ البَشَرَ لم يُؤتَوا مِن العِلْمِ إِلّا قَليلًا، كما يقولُ الذِّكْرُ الحكيمُ، لَنْ يُدْرِكُوا مِن أَسْبابِ عَظَمةِ الكتابِ الإلهيِّ إِلّا القليلَ. ومَعَ ذلكَ يَظَلُّ مِن الواجِبِ تأمّلُ أَهْلِ العِلْمِ نَظْمَ القُرْآن، واكتِشافُ بَعْضِ أَدِلّةِ عَظَمَته.

- نَظْمٌ بَشَريٌّ لِلنّظْمِ الإِلهيِّ: آيةُ النُّورِ في تَرْجَمةِ آرثر جون آربري بِالإِنكليزيّة:

تُرْجِمُ القُرْآنُ الكريمُ إِلَى لُغاتٍ كثيرةٍ، وجاهَدَ المُتَرْجِمونَ في مَجالِ

(١٨) نفسه، ص٣٨٨.

نَقْلِ مَعانِيهِ إِلَى عُقولِ مَن يُترجِمُونَ لَهُم. ونَعْرِضُ هنا آيـةَ النُّـورِ، مِـن سُـورةِ النُّورِ مِن القُرْآنِ الكريم، ونَعْرِضُ بَعْدَها تَرْجَمـةً إنكليزيّـةً لَهـا، قَـدّمَها دارِسُ الإِسْلامِ الإنكليزيُّ الأستاذُ آرثر جُون آربري؛ ابْتغاءَ تَبيُّنِ أَثارةٍ مِن عَظَمةِ نَظْمِ القُرْآنِ، وشيءٍ مِنَ الفاقِـدِ التّرجَمـيِّ، هـذا مَـعَ مُلاحَظـةِ الجُهْـدِ الـذي بَذَلَـهُ الرَّجُلُ لِتَحْقيقِ أقصَى ما يمكنُ تحقيقُه مِن المُحاكاةِ:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥].

وهذه تَرْجَمةُ آربري:

God is the light of the heavens and the earth;
the likeness of His Light is as a niche
wherein a lamp
(the lamp in a glass,
the glass as it were a glittering star)
kindled by a Blessed Tree,
an olive that is neither of the East nor of the West
whose oil well-nigh would shine, even if no fire touched it.
Light upon Light,
God guides to His Light whom He will.

وهَدَتْنا لَنا المُقارَنةُ إلى بَعْضِ استنتاجاتٍ:

١ – أَنّ العَرَبيّةَ، بِما هِيَ لُغةٌ، ذاتُ قُـدْرةٍ هائلـةٍ عَلَـى الإيحـاءِ بِالمَعـاني، رُبّما لا تكونُ مَوْجودةً بِالقَدْرِ نَفْسِه في اللُّغاتِ الأُخَر. فَمَعَ أَنّ السَّـيِّدَ آربـري حاكَى تَمامًا مادّةَ النَّظْمِ القُرْآنيّ، بِما هُوَ تَوَخٍّ مُعْجِزٌ لِمَعاني النَّحْوِ فـي مَعـاني الكَلِم، لا أَحْسَبُ أَنّ النُّورَ الإلهيَّ المُصَوَّرَ الذي سَطَعَ مِـن نَظْـمِ القُـرْآن، قـد

سَطَعَ مِثْلَما هُوَ مِن التّرجَمةِ الإنكليزيّة لِلْمَعاني القُرْآنيّة. وأَرَى أَنّ هذا هو الذي أَشارَ إِلَيْهِ آربري نَفْسُه حِينَ قالَ مُعَلِّقًا عَلَى التّرجَمة:

«الحقيقةُ، إِذَنْ، نُورٌ - نُورٌ يَسْطَعُ في القَلْبِ. وما النُّورُ؟- تَبْدُو الإجابةُ مُقدَّمةً في تِلْكَ الآيةِ الكريمة مِنَ القُرْآنِ [آية النُّور]... ومَتَى سَطَعَ هذا النُّورُ في القَلْبِ، لا ظُلْمةَ البَتّةَ يُمكِنُها أَن تتغلّبَ عَلَيه. وأَحْسَبُ أَنا أَنّ ذلكَ النُّورَ حَقيقةٌ واقِعِيّةٌ؛ لِأَنّني أَنا نَفْسي جَرَّبْتُه وعِشْتُه. وأَحْسَبُ أيضًا أَنّهُ «الحَقُّ»، وأتصوّرُ أَنّهُ لَيْسَ غَيْرَ مُناسِبٍ أَن نُسَمِّيَهُ «اللهَ»[١٩].

٢- أَنّ نَظْمَ القُرْآنِ، بِما هُوَ عَلَيهِ، قادِرٌ عَلَى «إِشْعاعِ» ضُروبٍ مِن الحُسْنِ والبَهْجةِ والقَبولِ والسِّحْرِ، مِن الصِّنْفِ الذي لا تَنْقَضي عَجائبُه، وليسَ ذلكَ في تَرْجَماتِ مَعاني القُرْآن.

٣- جاءَ وَصْفُ رَبِّنا، سُبْحانَه، لِلْقُرْآنِ بِأَنّهُ «شِفاءٌ» ثَلاثَ مَرّاتٍ في القُرْآنِ الكريم، وعِنْدَ كثيرٍ مِن المُسْلِمينَ هو شِفاءٌ حَقيقيٌّ. ولَيسَ مِن شَأنِنا أَن نَصِفَ هنا كيفيّةَ الشِّفاءِ، لكنّنا نستطيعُ أَن نقولَ في شَأنِه مِثْلَما قالَ بَعْضُهم في شَأنِ وَصْفِه تعالى بِـ«الاسْتِواء عَلَى العَرْش»: الشِّفاءُ مَعْلُومٌ، والكَيْفُ مَجْهُولٌ! والشِّفاءُ بِالقُرْآنِ العَرَبيِّ الذي أُنْزِلَ عَلَى مُحمَّدٍ، عَلَيه الصّلاةُ والسّلامُ، أكثَرُ مِنهُ بِتَرْجَمةِ مَعانيهِ. واللهُ أَعْلَمُ.

- مُسْتَلْزَمُ بَيانِ الإعجازِ في دَلائِلِ الإعجاز:

أَتَى الشَّيْخُ في الدّلائلِ بكثيرٍ مِن أَمْثِلةِ قُوّةِ النَّظْمِ القُرْآنيّ، أَو تَوَخِّي مَعاني النَّحْوِ في مَعاني الكَلِم فيه، لكنّ حَدِيثَه عن هذه القُوّةِ لا يَعْدُو أَن يكونَ وَصْفًا لِلْحالِ التي جاءَتْ عَلَيها التَّعَلُّقاتُ. وقد قَدَّمْنا شيئًا مِن هذه الأَمْثِلةِ. ونَحْسَبُ

(١٩) يُنْظَرُ في هذا الشّأن: Mystical Poems of Rūmī 2, Jalāl al-Dīn Rumī, Translated by A. J. Arberry, The University of Chicago Press, 1991, xiii.

هنا أَنّ طالِبَ الإعْجازِ مُرِيدٌ مَزيدَ بَيانٍ في هـذا الشّـأن. فَإنّـهُ لا يكفـي، مَـثَلًا، أَن يقولَ الشّـيخُ فـي شَـأنِ قَوْلِـهِ تعـالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]: كذا وكذا...، كما تَقَدَّمَ قَبْلُ. **ونَحْسَبُ هُنا أَنّ تَحْديدَ الشَّيْخِ مَصْـدَرَ الفَصاحةِ، مِثْلَما تقدّمَ، بِأَنّهُ في إِتْيانِ المعنَى مِن الجِهَـةِ التـي هـي أَصَـحُّ لِتَأْدِيَتِـه، واخْتِيارِ اللَّفْظِ الأَخَصِّ به والأَظْهَرِ لَه والأَدَلِّ عَلَيه مِن كُلِّ ما سِـواهُ، كـانَ يُمْكِـنُ أَن يُسْتَفادَ مِنْهُ في كُلِّ تَمْثيلٍ أَتَى به لِلْفَصاحةِ القُرْآنيّة. لكنّ الشّيخَ لم يَفْعَـلْ ذلـك لِأَسْبابٍ هو أَعْلَمُ بِها.** وقد فَتَحَ الشَّـيْخُ، جَـزاهُ اللهُ خَيْـرَ الجَـزاءِ، بابًـا إِلَـى عـالَمِ العَظَمةِ الإلهيّةِ في بَيانِ القُرْآنِ دَخَلَ مِنْهُ أَفْذاذٌ في تـاريخِ خِدْمـةِ الكِتـابِ العَزيـز. ولَعَلّ جارَ اللهِ الزَّمَخْشَريَّ (ت ٥٣٨هـ) مِمَّن أَحْسَنُوا الإِسْهامَ في تَـوْفيرِ مُسْـتَلْزِمِ بَيانِ الإعجازِ في الدّلائل. وَلْنَتَأَمَّلْ، مَثَلًا، قَوْلَهُ في شَأنِ عَظَمةِ فَصاحَةِ النَّظْمِ فـي سُورةِ «الإخلاص»:

سَأَلُوهُ [سَـأَلَ المُشْـرِكونَ النّبـيَّ] أَن يَصِـفَهُ لَهُـم، فـأَوْحَى إِلَيْـهِ [اللهُ] مـا يحتوي عَلَى صِفاتِه:

- فقَوْلُهُ: ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ إشارةٌ لَهُم إِلَى مَـن هُـوَ خـالِقُ الأَشْـياءِ وفاطِرُهـا، وفي طَيِّ ذلكَ وَصْفُهُ بِأَنّهُ قـادِرٌ عـالِمٌ؛ لِأَنّ الخَلْـقَ يَسْـتَدْعي القُـدْرةَ والعِلْـمَ، لِكَوْنِهِ واقِعًا عَلَى غايةِ إِحْكامٍ واتِّساقٍ وانْتِظـام. وفـي ذلـكَ وَصْـفُه بِأَنّـهُ حَـيٌّ سَميعٌ بَصِير.

- وقَوْلُهُ: ﴿أَحَـدٌ﴾ وَصْفٌ بِالوَحْدانيّةِ ونَفْيِ الشُّرَكاء.

- وقَوْلُهُ: ﴿الصَّـمَدُ﴾ وَصْفٌ بِأَنّهُ ليسَ إِلّا مُحتاجًا إِلَيه، وإِذا لَـمْ يَكُـنْ إِلّا مُحْتاجًا إِلَيْهِ، فَهُوَ غَنيٌّ...

- وقَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَـلِدْ﴾ نَفْيٌ لِلشَّبَهِ والمُجانَسة.

- وقَوْلُهُ: ﴿وَلَـمْ يُولَـدْ﴾ وَصْفٌ بِالقِدَمِ والأَوّليّة.

- وقَوْلُهُ: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ تَقْرِيرٌ لِذلكَ وبَتٌّ لِلْحُكْمِ به.

فَإِنْ قُلْتَ: الكَلامُ العَرَبيُّ الفَصيحُ أَن يُؤخَّرَ الظَّرْفُ(*) الذي هو لَغْوٌ غَيْرُ مُستَقِرّ ولا يُقدَّمُ، وقد نَصَّ سِيبَوَيْهِ عَلَى ذلكَ في كِتابِه، فما بالُهُ مُقَدَّمًا في أَفْصَحِ كلامٍ وأَعْرَبِه؟- قُلْتُ: هذا الكَلامُ إِنّما سِيقَ لِنَفْيِ المُكافَأةِ عن ذاتِ الباري سُبْحانَه؛ وهذا المعنَى مَصَبُّهُ ومَرْكَزُه هو هذا/ الظَّرْفُ؛ فكانَ لِذلكَ أَهَمَّ شيءٍ وأَعْناهُ، وأَحَقَّهُ بِالتّقدُّمِ وأَحْراه(٢٠).

لا يَعْدُو هذا الذي تَقَدّمَ أَن يكونَ مِثالًا واحِدًا لِتَلْبِيَةِ مُسْتَلْزَمِ بَيانِ الإعجازِ في سُورةِ «الإِخْلاص» مِن القُرْآنِ الكريم. وفي مُتناوَلِنا أَن نَتقدَّمَ في التّأمُّلِ لِكَي نقولَ إِنّ بَيانَ الإعجازِ كانَ يَسْتَلْزِمُ وَفْقَ ما يَرَى الشّيخُ تَدْليلًا عَلَى السَّبَبِ في أَنّ تَوَخِّيَ مَعاني النَّحْوِ في مَعاني الكَلِمِ في القُرْآنِ يَعْجِزُ عَنْهُ أَفْذاذُ الفُصَحاءِ والبُلَغاء. فهَلْ مَرْجِعُ ذلكَ إِلَى القُدْرةِ الإلهيّةِ القديمةِ المُطْلَقةِ والقُدْرةِ البَشَريّةِ الحادِثةِ المُقَيَّدة؟ لِماذا لا يُفكَّرُ في هذا الشّأنِ في حَقيقةِ أَنّ اللهَ سُبْحانَه خَلَقَ الإنسانَ ضَعيفًا. ولا مَناصَ، والحالُ كذلك، مِن أَن يأتيَ نَظْمُ كلامِ القادِرِ تعالى، أَو تَوَخِّي معاني النَّحْوِ في مَعاني الكَلِمِ في كلامِهِ، مُعْجِزًا لِلضَّعيفِ أَيًّا كان. ويَبْقَى مُسْتَلْزَمًا لِبَيانِ الإعجازِ في كلامِ اللهِ الإفْصاحُ عَن سَبَبِ إعجازِ المُعْجِزِ، بِقَدْرِ الطّاقةِ البَشَريّةِ عَلَى الكَشْفِ. وقد تَقدَّمَ، في مِثالِ الزَّمَخْشَريِّ في شأنِ الفصاحةِ البالِغةِ مَبْلَغًا عَظيمًا في سُورةِ الإخلاصِ، شَيءٌ مِن هذا الذي نَتحدّثُ عنه. فَإِنّ السَّبَبَ الأكثَرَ وُضوحًا لنا، نحنُ البَشَرَ، أَنّ المَعانيَ التي تنبثِقُ عن نَظْمِ القُرْآن، أو عن تَوَخِّي مَعاني النَّحْوِ في مَعاني الكَلِمِ فيه، مِنَ الصِّنْفِ الذي يَعْجِزُ العَقْلُ البَشَريُّ مهما أُوتيَ مِن قُوّةٍ عن أَن يأتيَ بِمِثْلِه. ويَخالُ المُتأمِّلُ أَنّ مَعْنَى قَوْلِه سُبْحانَه عن ذاتِهِ

(*) المُرادُ بِالظَّرْفِ هُنا: «لَهُ».

(٢٠) الكشّاف، ج٤ ص٨١٦-٨١٨.

العَلِيّةِ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩] **يَنْطَبِقُ عَلَى ما نحنُ إزاءَه. فإِلَى أَن يكونَ في مُحَصَّلِ البَشَرِ أَن يَفْعَلُوا مِثْلَ ذلكَ تَمامًا، لَنْ يكونَ في مُحَصَّلِ أَساطينِ فُصَحائِهِم وخُبَراءِ نَظْمِ الكَلامِ مِنهم أَن يأْتُوا بِنَظْمٍ مُماثِلٍ لِنَظْمِه، ومَن يَعْلَمُ هو الحُجّةُ عَلَى مَن لا يَعْلَمُ.** ولَسْتُ إِخالُ أَنّهُ مِمّا يَضيرُ البَشَرِيّةَ العاقِلةَ، فَضْلًا عن البَشَرِيّةِ المُؤمِنةِ المُحْسِنةِ المُدْرِكةِ لِلرّوعةِ والخلابةِ في الكَلامِ العَرَبِيِّ، أَن تَظَلَّ تُقارِنُ بَيْنَ نَظْمِ كلامِ اللهِ ونَظْمِ كلامِ أَعْلامِ الفَصاحةِ والبَيان!

- فِكْرةُ «لا نِهائيّةِ الفَصاحةِ» التي أَدْخَلَها نَظْمُ القُرْآنِ عَلَى التّفكيرِ البلاغيِّ العَرَبِيّ:

أَدْخَلَتْ فِكْرةُ البَيانِ المُعْجِزِ وصُورتُه المُثْلَى عَلَى الثّقافةِ العربيّةِ تَصَوُّرَ «لا نِهائيّةِ الفَصاحة»، وصارَ كُلُّ مُتَلَقٍّ لِلْقُرْآنِ عَلَى قَدْرٍ مِن البَصَرِ بِجَمالِ الأداءِ، وكُلُّ طالِبٍ لِعِلْمِ البَلاغةِ أيضًا، يَجِدانِ في نَفْسَيْهِما إِحْساسًا بِأَنّ مَيْدانَ سِباقِ إِنتاجِ الكلامِ الرّفيعِ لا غايةَ لَهُ ولا أَمَدَ، وأَنّ انْشِغالَ نَفْسِ العَرَبِيِّ المُسْلِمِ بِإِدْراكِ قَدْرٍ مِن رَوعَةِ الأداءِ في الكِتابِ العزيزِ صَنيعٌ مُبارَكٌ وعَمَلٌ مِن الصِّنْفِ الذي يُرْضِي الحَقَّ تعالَى. **وإِنّ عِلْمَ المُسْلِمِ غَيْرِ العَرَبِيِّ ذلكَ يَدْفَعُه يَقِينًا إِلَى تَعَلُّمِ العَرَبيّةِ وتَحْصِيلِ قَدْرٍ مِن الإِتْقانِ في ذلك؛ لكي لا يَبْقَى مَحْجُوبًا عن مَصْدَرٍ أَساسيٍّ مِن مَصادِرِ تَثْبيتِ الإِيمانِ بِعَظَمةِ اللهِ مِن طَرِيقِ إِدْراكِ شيءٍ مِن عَظَمةِ المَعاني المُنْبَعِثةِ مِن نَظْمِ القُرْآنِ وتَوَخِّيهِ مَعاني النَّحْوِ في مَعاني الكَلِم.**

وقد غَدَتْ هذه الفِكْرةُ مُهَيْمِنةً عَلَى التّفكيرِ البلاغيِّ العَرَبيِّ وإِبْداعِ الكلامِ الآسِرِ، ومائزًا حاسِمًا لِعِلْمِ الجَمالِ الأَدَبيِّ عِنْدَ العَرَب، ودافِعًا قَوِيًّا ثابِتًا إِلَى مَوْقِفٍ خاصٍّ مِن بَلاغةِ الكلام.

- مَحْصُولُ الكَلام:

اهتدَى البَحْثُ إِلَى أَنّ الشّيخَ عَبْدَ القاهِر، قَصَدَ في الدّلائلِ إِلَى تَحْديدِ

طَبيعةِ مَظاهِرِ الإِعْجازِ البَيانيِّ في كتابِ الله، فبَيّنَ أَنّ مَبْعَثَ الإعجازِ هو ما في القُرْآنِ مِن فَصاحةٍ وبلاغةٍ وبَيانٍ وبَراعةٍ، وأَكّدَ عن أَنّ المُعْجِزَ في القُرْآنِ إنّما هو نَظْمُه، الذي يعني تَوَخِّيَ مَعاني النَّحْوِ في مَعاني الكَلِم. ووَقَفَ البَحْثُ عِنْدَ النَّظْمِ الإلهيِّ القُرْآنيِّ والعَجْزِ البَشَريِّ عَنِ الإتْيانِ بِمِثْلِه، وعِنْدَ إِدْراكِ المَزايا والخَصائصِ في نَظْمِ القُرْآنِ، وأَنّ هذا الإِدْراكَ مِن شَأنِ خاصّةِ البُلَغاءِ والأَبْيناءِ، وأَنّ تَطَلُّبَهُ واجِبٌ عَلَى المُسْلِمِ القادِرِ؛ لِأَنّهُ أَداةٌ لِتَرْسيخِ الإيمانِ بِاللهِ سُبْحانَه. وقدّمَ البَحثُ صُورةً بَشَريّةً حاكَتْ نَظْمَ آيةٍ قُرْآنيّةٍ، وخَلَصَ إِلَى أَنّ نَظْمَ الخالِقِ مُباينٌ تَمامًا لِنَظْمِ المَخْلوقِ الذي قَدّمَ عَيْنَ الرَّصْفِ القُرْآنيِّ وأَعْيانَ مَعاني الكَلِماتِ فيه. وبَيّنَ البَحْثُ في شَطْرِه الأخيرِ ما يَلْزَمُ بَيانَ الإعجازِ مِن تَحْدِيدِ عَيْنِ المَعْنَى الذي أَظْهَرَه نَظْمُ القُرْآنِ ويَعْجِزُ عَنْهُ فُرْسانُ حَلْبَةِ البَيان. وانتهى البَحْثُ بِالحديثِ عن فِكْرةِ «لانهائيّةِ الفَصاحةِ» التي أَدْخَلَها نَظْمُ القُرْآنِ عَلَى التّفكيرِ البَلاغيّ العَرَبيّ؛ حَيْثُ يبلُغُ الذِّكْرُ الحَكيمُ في تَوَخّي مَعاني النَّحْوِ في مَعاني الكَلِمِ أُفُقًا تَنْقَطِعُ دُونَهُ الآمالُ وتَحْسَرُ الظّنونُ. هذا ومِنَ اللهِ سُبْحانَهُ التَّوْفيقُ إِلَى حُسْنِ القَوْلِ وحُسْنِ العَمَل!

* * *

المصادر والمراجع

- الأعلامُ، لِخَيْرِ الدِّين الزِّرْكِليّ، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٩م.
- البيانُ والتّبيينُ، لِلْجاحِظ، بتحقيق عبدالسّلام مُحمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

- دلائلُ الإعجاز، لِعَبْدِ القاهِرِ الجُرْجانيّ، قَرَأَهُ وعَلّقَ عليه أبو فِهْر محمود مُحمّد شاكر، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- الصِّحاحُ في اللّغةِ والعُلومِ - تَجْدِيدُ صِحاحِ العلّامةِ الجوهريّ، إعدادُ وتصنيف نديم مَرْعَشْلي وأسامة مَرْعَشْلي، دار الحضارة العربيّة، بيروت.
- القاموسُ المُحِيطُ، لِلْفَيروزآباديّ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت.
- الكشّافُ، لِلزَّمَخْشريّ، رتّبَهُ وضبطَهُ وصَحّحَهُ مصطفى حسين أحمد، دار الكتابِ العربيّ، بيروت.
- مُخْتارُ الصِّحاح، لِلرّازيّ، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٩٨م.

- في الإنكليزيّة:

- Mystical Poems of Rūmī 2, Jalāl al-Dīn Rūmī, Translated by A.J. Arberry, University of Chicago Press 1991.

* * *